

## نهاية الاستشراق وبداية الاستغراب

### قراءة في مشروع "حسن حنفي" الفكري "مقدمة في علم الاستغراب"

*The end of the orientalism and the beginning of the oxidentalism*

*A reading in Hassen Hanafi's comprehensive project « An introduction at the oxidentalism science »*

د. عائشة لعبادلية\*

جامعة عباس لغرور-خنشلة (الجزائر)

[aicha.labadlia@univ-khenchela.dz](mailto:aicha.labadlia@univ-khenchela.dz)

تاريخ القبول: 2023./07./16

تاريخ الاستلام: 2022/04/09

#### الملخص:

يعد الاستغراب من أهم القضايا التي اهتم بها مفكرو النظرية ما بعد الكولونيبالية باعتبارها حركة ثقافية مضادة لمظاهر التغريب والتعالي والتهميش، وباعتبار الاستغراب مقاومة ثقافية ضدية؛ تسعى إلى تفكيك خطاب التمرکز الغربي وتعريه نسقه الحضاري، لذلك يهدف هذا المقال إلى الانفتاح على مشروع "حسن حنفي" الفكري حول الاستغراب من خلال تقديم رؤية نقدية فكرية للمنطلقات النظرية والمنهجية التي اعتمدها لتأسيس موقفه من التراث الغربي وتحديد مفهومه لعلم الاستغراب وأهدافه ودوره في الرد على المركزية الأوروبية كاستشراق مضاد. لذلك تطمح هذه القراءة إلى الإجابة عن المساءلات الآتية: إلى أي مدى يقترب استغراب حسن حنفي من آليات الاستشراق ومنهجه؟ وما مدى إفادة النظرية ما بعد الكولونيبالية من تصورات مشروعه؟ وهل نجح الاستغراب منذ تأسيسه نظريا كعلم منهجي - حسب حنفي - في تغيير مراكز الحضارات في عصرنا الراهن؟ وهل انتهى الاستشراق حقا؟

الكلمات المفتاحية: الاستشراق، الاستغراب، حسن حنفي.

#### Abstract:

The oxidentalism is one of the most important issues that the thinkers of the post-colonial theory were interested in, as it is considered as a cultural movement which was against anti-oriental, pride and neglect behaviours, taking into consideration oxidentalism as an anti-cultural resistance, that aims at deconstructing the western centrism discourse and revealing its civilized context, hence this article aims at the opening on the comprehensive project of "Hassen Hanafi" about oxidentalism through giving a comprehensive critical vision to the theoretical and the methodological basic which he depended on to establish his position from the western heritage, defining oxidentalism science, its purposes and roles in responding on the European centrism as an anti-orientalism. So, this reading seeks to answer for the following interrogations: To what extent the "Hassen Hanafi's" oxidentalism gets close to mechanisms or orientalism and its methodology? And how much did the post-colonial theory help in the perceptions of his project? And did oxidentalism succeed since its foundation theoretically as a methodological science in changing the centres of civilizations in nowadays? And did orientalism really finish?

**Keywords:** Orientalism, Oxidentalism, Hassen Hanafi.



## تمهيد

كشفت المفكرون الغرب مكامن الشرق في ضوء الاستشراق بعدّه خطابا كولونياليا قادرا على إخضاعه حضاريا وثقافيا وسياسيا، في مقابل ذلك سعى المفكرون العرب إلى دراسة الاستشراق ونقده ولعل أبرزهم إدوارد سعيد الذي مهد للاستغراب المعاصر بطريقة غير مباشرة من خلال كتابه الاستشراق 1978 كونه اهتم بتحليل الخطاب الاستشراقي وتفكيك الخطابات الكولونيالية، فكان كتاب الاستشراق لإدوارد سعيد خطابا مضادا للاستشراق الغربي كونه ينتقد خطاب التمركز . وتوالت قراءات المفكرين العرب للاستشراق دون محاولة لإيجاد منهج علمي للرد عليه إلى أن أصدر حسن حنفي كتابه " مقدمة في علم الاستغراب " سنة 1990 أسس -حسب رؤيته- لعلم مضاد هو علم الاستغراب الذي يهدف إلى تفكيك المركزية الغربية وتفكيك خطاباتها المبنية على الهيمنة والاستعلاء والتغريب في محاولة لمواجهة الاستشراق باستشراق مضاد وفق منهج علمي يبحث في مكامن الضعف والقوة للغرب، فعّد حسن حنفي بمشروعه الفكري هذا رائد علم الاستغراب في الفكر العربي المعاصر. لذلك يسعى هذا المقال إلى الإجابة عن المساءلات الآتية: إلى أي مدى يقترب استغراب حسن حنفي من آليات الاستشراق ومنهجه؟ وما مدى إفادة النظرية ما بعد الكولونيالية من تصورات مشروعه؟ وهل نجح الاستغراب منذ تأسيسه نظريا كعلم منهجي -من وجهة نظر حنفي- في تغيير مراكز الحضارات في عصرنا الراهن؟ وهل انتهى الاستشراق حقا؟

## أولا- المنطلقات المعرفية والمنهجية للاستغراب:

يعد مشروع "حسن حنفي" حول الاستغراب جزءا من مشروع كبير هو التراث والتجديد، إذ لم ينطلق في دراسته من فراغ، وإنما كان التراث القديم أهم المنطلقات المعرفية النظرية التي أسست لمشروعه، فقد حاول عبر الأجزاء الأولى من مشروعه إعادة بناء علم أصول الدين وعلوم الحكمة وعلوم التصوف وعلم أصول الفقه والعلوم النقلية كالقران والحديث والتفسير والسيرة والفقه والعقلية كالعلوم الرياضية والطبيعة، والإنسانية كاللغة والأدب الجغرافيا والتاريخ، فشكلت هذه الدراسات جزءا مهما لتتمة مشروعه ذي الجبهات الثلاثة حيث تشير إلى " جدل الأنا والآخر في واقع تاريخي محدد، فالجبهة الأولى " موقفنا من التراث القديم " تضع الأنا تاريخها الماضي وموروثها الثقافي والجبهة الثانية " موقفنا من التراث الغربي " تضع الأنا في مواجهة الآخر المعاصر وهو الوافد الثقافي الغربي أساسا . والجبهة الثالثة "موقفنا من الواقع " نظرية التفسير " فإنها تضع الأنا في خضم واقعها المباشر. " ( حنفي ، 1991، صفحة 12) فبناء الموقف من التراث الغربي الذي هو موضوع الاستغراب لا يتأسس إلا بوعي موروث الأنا الثقافي وإعادة بنائه من جديد لمواكبة تحديات العصر، لذلك تكونت الجبهة الثانية لمشروع "حسن حنفي" حول الاستغراب والمتمثلة في الموقف من الغرب من ثلاثة منطلقات أساسية حول تكوين الوعي الأوروبي وهي:

1- مصادر الوعي الأوروبي: وفيه يتم الكشف عن المصادر المعلنة والخفية، فالمعلنة مثل المصدر اليوناني والروماني والمصدر اليهودي والمسيحي والخفية مثل مصدر الشرق القديم والبيئة الأوروبية نفسها، وذلك في فترة التكوين من القرن الأول حتى القرن الرابع عشر ويضم عصر آباء الكنيسة اليونان واللاتيني في القرون السبعة الأولى ثم العصر المدرسي المتقدم والمتأخر في القرون السبعة التالية.

2 - بداية الوعي الأوروبي: وفيه يتم الكشف عن بداية تكون الوعي الأوروبي في عصري الإصلاح الديني وعصر النهضة في القرنين الخامس والسادس عشر، ثم وضع البداية في الكوجيتو والعقلانية في القرن السابع عشر وانفجاره في التنوير والثورة في القرن الثامن عشر.

3 - نهاية الوعي الأوروبي: وفيه يتم الكشف عن التحول الرئيسي في مسار الوعي الأوروبي من الأنا أفكر إلى الأنا موجود، وبداية نقد الوعي الأوروبي لنفسه ونقد ماضيه وما وضعه بنفسه، نقد المثالية والوضعية واكتشاف طريق ثابت يضم الفهم المفتوح ويغلقه في الظاهريات. ( حنفي ، 1991، صفحة 18) وقد كانت هذه المنطلقات النظرية الثلاثة الأساس لإعادة وصف الوعي الأوروبي منذ مصادره الأولى ونشأته وتطوره حتى اكتماله.

قدم حسن حنفي علم الاستغراب كنفيز للاستشراق وأسس هذا العلم من خلال منطلقات نظرية بدأها بدراسة تكوين الوعي الأوروبي بتبعه تاريخيا انطلاقا من مصادره مطبقا المنهج نفسه الذي طبقه المستشرقون على الحضارة الإسلامية وظف حسن حنفي كل الآليات التي انطلق منها المستشرقون لتأسيس خطاب التمرکز الغربي بشكل معكوس لتكريس مركزية الشرق وتفوقه الحضاري.

وقد اعتمد حسن حنفي على المنهج التاريخي ومنهجية التحليل والتأثير والتأثر والإسقاط فيما يتعلق بتحديد الجذور التاريخية للاستغراب، وفي تطرقه لتاريخ تكوين الوعي الأوروبي بدءا بمصادره وبدايته ونهايته "من أجل اكتشاف التكوين التاريخي لهذا الوعي والقضاء على أسطورة الثقافة العالمية، والحضارة الممثلة للحضارات البشرية جميعا مطبقا المنهج التاريخي الذي طالما طبقه الاستشراق على الحضارة الإسلامية وكذلك منهج الأثر والتأثر ومنهج التحليل ومنهج الإسقاط التي طالما عانينا منها في دراسات المستشرقين الأوروبيين للحضارات اللأوروبية". ( حنفي ، 1991، صفحة 19) وينتقل حسن حنفي من تكوين الوعي الأوروبي إلى بنيتة مطبقا علم اجتماع المعرفة لتبيان العناصر الثابتة المتراكمة عبر التاريخ والتي منحت العقلية الأوروبية خصوصيتها وطابعها الخاص دون الوقوع في العنصرية البيولوجية أو الشعبية أو الحضارية. ثم يتطرق إلى مصير الوعي الأوروبي مستشرفا مساره المستقبلي وتحديد العلاقات بين الأنا والآخر في تداخلها وتقابلها وتبادلها للأدوار عبر التاريخ.

يرى حسن حنفي أن الاستشراق تبني مناهج البحث العلمي أو المذاهب السياسية التي كانت سائدة في القرن التاسع عشر كالمناهج الوضعية والتاريخي والتأثير والتأثر والإسقاط والتحليل فضلا عن نزعة العنصرية والقومية وقد كان محملا بأيدولوجيا الوعي الأوروبي الذي تكون فيه الحضارة الحديثة ويؤكد أن مناهج الاستغراب العلمية تختلف عن مناهج التي تبناها الاستشراق يقول " ظهر الاستشراق قديما محملا بأيدولوجيا مناهج البحث العلمي أو المذاهب السياسية التي كانت سائدة في القرن التاسع عشر خاصة، من وضعية وتاريخية وعلمية وعنصرية وقومية، في حين يظهر الاستغراب اليوم في أيدولوجيا مناهج علمية مخالفة مثل مناهج اللغة وتحليل التجارب المعاشة وأيدولوجيا التحرر الوطني". ( حنفي ، 1991، صفحة 30) ويرجع حسن حنفي سبب هذا الاختلاف إلى وعي الباحث المعاصر في علم الاستغراب الذي لا يهدف إلى السيطرة أو الهيمنة بل يسعى فقط إلى التحرر من قيد الآخر لتحقيق التوازن بين الأنا والآخر.

ينبغي على الاستغراب أن لا يقع في الأخطاء المنهجية والتاريخية والفلسفية التي وقع فيها الاستشراق ؛ ومنها عقدة الاستعلاء السائدة في الفكر الأوروبي منذ عصر النهضة حيث جعلت الأوروبي لا يعترف بحضارات أرقى من حضارته ماديا وروحيا ولا يؤمن إلا بالسيادة والتميز العرقي والثقافي، مما أثر ذلك على كتابات المستشرقين وتفسيرهم للتاريخ الإسلامي، كما أثر المذهب التجريبي والنزعة

الوضعية التي سادت في القرن الثامن عشر في كتاباتهم التاريخية عن الإسلام، "وبما أن المنهج الوضعي لا يؤمن إلا بالوجود المادي الملموس، فإن المستشرقين الذين تأثروا بهذا المنهج شككوا بالعديد من المظاهر الإسلامية التي لا يستطيعون تفسيرها حسب مناهج المدرسة المادية الوضعية التاريخية التي تؤمن إلا بالاستقراء المبني على التجربة." (عمر فوزي، 1998، صفحة 28) وبالتالي فعقدة الاستعلاء والتفوق الغربي وما كرسه فلسفات القرن التاسع عشر من مناهج علمية قائمة على النزعة الوضعية التاريخية ومن عنصرية وقومية أثرت سلبا على دراسات المستشرقين، في حين يعتمد استغراب حسن حنفي على المناهج ذاتها التي أوقعت الاستشراق في أخطاء عديدة، كما أنه يؤكد على الاختلاف بين منهج الاستغراب ومنهج الاستشراق بينما وضح في البيان النظري للاستغراب اعتماده المناهج العلمية ذاتها التي وظفها الاستشراق لتحقيق أهدافه. وبالتالي تبدو هذه الرؤية المنهجية التي رسمها حسن حنفي لمشروعه مضطربة ويعتريها التناقض. بالإضافة إلى أن أهداف الاستغراب التي حددها منذ بداية كتابه وكررها مرارا لا تسعى إلى إعادة الحضارة الأوروبية إلى حجمها الطبيعي فحسب؛ بل تسعى إلى تكريس مركزية الحضارة العربية الإسلامية والحضارات الشرقية ككل ولو كان ذلك بمركب عظيمة وهمي. وبالتالي يرد حسن حنفي على المركزية الغربية باستشراق معكوس يكرس هو الآخر التبعية والصراع.

### ثانيا: تأسيس علم الاستغراب كاستشراق مضاد:

كان الدافع الأساسي للمفكر "حسن حنفي" من بناء الموقف من التراث الغربي هو عدم وجود حركة نقدية علمية عربية للتراث الغربي، على الرغم من كونه أحد الروافد الأساسية لوعينا القومي كونه حاضرا في ثقافتنا ووعينا الحضاري منذ المرحلة اليونانية إلى العصر الحديث، مما أدى إلى التغريب نتيجة انتشار الثقافة الغربية في وعينا القومي والانبهار بها إلى درجة التبعية. وبذلك كانت الدعوة إلى تأسيس علم الاستغراب مقابل الاستشراق، لكن ما يبدو جليا للوهلة الأولى أن الاستشراق ليس علما ولم يكن الغرب في حاجة إلى إنشاء علم خاص ومستقل بذاته لمعرفة الشرق والسيطرة عليه، ولا الأهداف التي حددها "حسن حنفي" للاستغراب يمكن أن ترتقي به إلى مصاف العلم بمجرد تغيير الدراس والمدرّوس وقلب الأدوار، لأن تأسيس العلم "عملية إعداد وتنظيم وتحكم وتنبؤ وتفسير، ترتبط جميعا بالمنهج الذي يعتمد أبنيته الأساسية؛ الوقائع والمفاهيم والفروض والقوانين والنظريات، وبالتالي ليس من شأن العلم ولا من أهدافه القيام بأدوار سياسية أو إيديولوجية." (عطية، 1997، صفحة 207) وبالتالي فالجديد في استغراب حنفي ليس كونه علما - فالاستغراب منذ بداياته وإرهاصاته الأولى لم يكن علما - ولا يمتلك داخل مشروعه أسس العلم المنهجي الدقيق، بل هو ما نلمسه من تطور في دلالة مصطلح الاستغراب ذاته؛ فاكتمب معنى مناقضا للاستشراق حيث تكمن وظيفته في دراسة الغرب برؤية شرقية وبالطريقة ذاتها التي درس بها الغرب الشرق. والدعوة إلى دراسة الغرب قديمة لكنها لم تسمّ بهذه التسمية ولم يرد مصطلح الاستغراب بهذه الدلالة قبل "حسن حنفي". لم يصل الاستغراب إلى مرحلة العلم بعد على الرغم من كل المحاولات السابقة، ذلك أن من أهم شروط العلم هو امتلاكه موضوعا معرفيا مستقلا ومباحث متنوعة كضرورة منهجية، فضلا عن امتلاكه مدارس ونظريات ومذاهب مختلفة لتفسير قضايا العلم وفي هذا السياق يرى "نايف بن نهار" أن علم الاستغراب "لا نعرف إلى الآن موضوعاته ولا مباحثه ولا غاياته ولا مناهجه، كل ذلك مازال غامضا، علاوة على أن الإشكالية تزيد إن علمنا المساهمة الأشهر في تأسيس علم الاستغراب؛ وهي مسألة الدكتور حسن حنفي، لم تزد علم الاستغراب إلا تيهام وضياعا، فقد صار موضوع علم الاستغراب غامضا بسبب الغايات التي جعلها منوطة به، كما أفقد العلم قيمته،

حين صوره على أنه انتقام حضاري من الغرب، وأخرجه بذلك من مسار العلم إلى مسار الخطابة الأيديولوجية. " ( بن نهار ، 2017 ،  
صفحة 26) إن أدلة الاستغراب تنقله حتما من الخطاب العلمي المنهجي إلى الخطاب الأيديولوجي المبني على الصراع، وهذا لا يعني أن  
الاستغراب لن يكون علما ولكن الخطأ في وصفه بالعلم في هذه المرحلة المبكرة من محاولة تأسيسه.

ركز "حسن حنفي على إعادة وصف الوعي الأوروبي انطلاقا من مصادره الأولى في نشأته وتطوره واكتماله وانهاية، بمعنى وصفه  
في مراحل التاريخة وليس في بنية علومه كما هو الحال مع الموقف من التراث القديم لأن علاقة الأنا بالآخر كانت منذ البداية علاقة صراع  
وتضاد، ولأنّ الحضارة الغربية -حسب رأيه- "حضارة طردية أي أنّها نشأت تحت أثر الطرد المستمر من المركز ورفضاً له بعد اكتشافه  
عدم اتساقه مع العقل أو تطابقه مع الواقع ثم إنشاء علوم عقلية وطبيعية وإنسانية تقوم على أدوات جديدة للمعرفة العقلية والحسية. وابتداءً  
من بؤرة جديدة وهو الإنسان نشأت الحضارة الأوروبية كتطور صرف دون بناء. " ( حنفي ، 1991 ، صفحة 17) في مقابل ذلك  
تكونت بنية الحضارة الإسلامية ومركزيتها من الدين وعلومه حيث كانت تتعامل مع الوافد الخارجي من جهة ومن الموروث من جهة أخرى  
لحمايته من الجمود والانعزال الذاتي. وبالتالي يسعى حسن حنفي من خلال رؤيته حول تكون الحضارتين الأوروبية والإسلامية إلى تكريس  
مركزية الشرق وتفوقه الحضاري حيث استخدم الخطاب الاستشراقي بطريقة معكوسة لنواصل مسيرة الغزو على غيرنا ونصنع ما صنعه  
الاستعمار.

ويرى حسن حنفي أن تأسيس علم الاستغراب في مقابل الاستشراق ضرورة ملحة في عصر الثورة المضادة ويقصد بها ظاهرة  
التغريب، فقد نجحت حركات التحرر الوطني في تحرير أوطانها من الاستعمار العسكري، لكن ظل المستعمر تابعا للمستعمر اقتصاديا  
وسياسيا وحضاريا بعد الاستقلال على الرغم من الثورات المضادة من داخل الشعوب المستعمرة، لأن عقدة النقص التاريخية أمام الآخر  
مازالت مندسة في الذهن العربية مقابل الإحساس بالعظمة لذلك " يهدف علم الاستغراب إلى إقالة الثورات الحديثة من عثراتها واستكمال  
عصر التحرر من الاستعمار والانتقال من التحرر العسكري إلى التحرر الاقتصادي والسياسي والثقافي وقبل كل شيء التحرر الحضاري. "  
( حنفي ، 1991 ، صفحة 32) فعلاقة الأنا بالآخر غير متكافئة على الرغم من تحرر الشعوب غير الأوروبية من الاستعمار العسكري،  
لأن الغزو ما بعد العسكري في بعده الثقافي والحضاري أكثر خطرا من الغزو العسكري كونه يولد انفصال الذات عن ذاتها وخصوصيتها  
والانبهار بالآخر وتبعيته ثقافيا وحضاريا فيبقى الآخر مندسا في وعي الأنا وهو ما يتجلى لنا في ظاهرة التغريب.

يرى "حسن حنفي" أن الاستغراب هو الوجه الآخر المضاد للاستشراق، فإذا كان هدف الاستشراق هو رؤية الشرق من خلال  
الغرب فإن علم الاستغراب يهدف إلى "فك عقدة النقص التاريخية في علاقة الأنا بالآخر والقضاء على مركب العظمة لدى الآخر الغربي  
بتحويله من ذات دارس إلى موضوع مدروس والقضاء على مركب النقص لدى الأنا بتحويله من موضوع مدروس إلى ذات دارس مهمته  
القضاء على الإحساس بالنقص أمام الغرب لغة وثقافة وعلمًا.. " ( حنفي ، 1991 ، صفحة 29) تبدو عقدة النقص والعظمة التي  
ميزت الشرق والغرب منذ الاستشراق القديم حين كان الغرب دارسا والشرق موضوعا، وبذلك استمد حسن حنفي الآلية ذاتها لكن بطريقة  
معكوسة في تأسيسه لعلم الاستغراب ليصبح الغرب موضوعا مدروسا والشرق دارسا، وبالتالي تتحقق مهمة الاستغراب المبنية أساسا على  
نقض المركزية الغربية. غير أن معرفة الآخر الغربي ودراسته لا تعني بالضرورة إحساسه بالدونية بل قد يكون ذلك مصدر دعم وقوة له، كما

أن الرغبة الجارحة في القضاء على مركب العظمة قد يولد لدى الأنا الإحساس بمركب العظمة الوهمي، لا سيما وأن علم الاستغراب مازال في بداياته، غير أن "حسن حنفي" يدرك ذلك ولكنه يبرر الوقوع في مأزق العظمة الوهمي بالنسبة للأنا باعتباره ردة فعل طبيعية على مركب العظمة الدفين في الثقافة الغربية.

وينبغي الإشارة إلى أن نوايا الاستشراق لم تكن كلها بريئة فمن المستشرقين من كان متواطئاً مع الإمبريالية ومنهم من كان هدفه التجسس أو تشويه صورة الشرق، ومنهم من كان هدفه الهيمنة السياسية والثقافية؛ وهذا ما جعل "حسن حنفي" يميز بين الاستشراق والاستغراب، إذ يقوم الاستغراب - حسب رؤيته - لا "على أنا محايدة لا تبغي السيطرة وإن بغى التحرر، ولا يريد تشويه ثقافات الآخر وإن أراد معرفة تكوينها وبنيتها، إن أنا الاستغراب أكثر نزاهة وموضوعية وحياداً من أنا الاستشراق". (حنفي، 1991، صفحة 32) إن غاية الاستغراب الأولى هي معرفة التكوين التراثي والحضاري للغرب لإعادة التوازن الذاتي للأنا، لكن تبدو رؤية "حسن حنفي" في هذا السياق رؤية ضبابية غامضة ويشوبها بعض التناقض حين يصف الاستغراب بالموضوعية التامة، لأن فيه شيء من الذاتية. فمهما حاول الباحث - المهتم بمجال النظرية والمنهج العلمي في العوم الإنسانية - أن يكون موضوعياً فإن هناك أموراً لا يمكنه أن يتبع فيها المنهج العلمي مثلما هو الحال في العلوم الطبيعية، يؤكد ذلك الباحث في مجال الاستغراب الفلسطيني محمد النيرب "صاحب كتاب "تاريخ الولايات المتحدة الأمريكية الذي صدر باللغتين العربية والإنجليزية - عندما سئل عن المنهج العلمي في مجال العلوم الإنسانية سواء على المستوى التقني أو على مستوى أنماط التعبير فأجاب بقوله "فنحن شئنا أم أبينا لا نستطيع أن نطبق المنهج العلمي الصارم في مجال العلوم المختصة بالطبيعة البشرية، فهي طبيعة متحركة، وطريقة فهمنا لها ليست موحدة بالضرورة. لكن هذا لا يمنع الباحث من الاجتهاد في تحقيق أكبر قدر من الموضوعية الممكنة". (الشيخ، 2000، صفحة 252) فلا يمكن للباحث في هذا المجال أن يتخلص من نوازع الانتماء وقد دعا "حسن حنفي" في أكثر من مقام إلى مركزية الحضارة الإسلامية وتفوق الشرق على الغرب والقضاء على المركزية الأوروبية فغلبت عليه الذاتية والتناقض.

ينبغي الإشارة إلى أن الاضطراب في تحديد أهداف المشروع يؤكد عقدة النقص اتجاه الغرب ويؤسس في الوقت ذاته لمركب العظمة الوهمي، إذ إن تأسيس رؤية مضادة للاستشراق الذي حقق أهدافه الكاملة يتوجب على الباحث والمفكر في هذا المجال الثبات في طرح الأفكار وتحديد الأهداف وفق مبدأ واحد وغاية واحدة حتى لو اتسم ذلك بنسبة من الذاتية لأن هذه الذاتية ليست فردية وإنما مرتبطة بانتماء ثقافي و حضاري لا بد أن يفرض وجوده ويموقع نفسه انطلاقاً من غاياته.

### ثالثاً- من نقل الغرب إلى إبداع الاستغراب:

قدّم "حسن حنفي" من خلال تأسيس علم الاستغراب نقلة فكرية عكسية لصالح المفكرين والدارسين العرب ولوعي الأنا الذي بموضع التاريخ الأوروبي والثقافة الغربية كإطار مرجعي لكل إبداع يبدعه الأنا، فتتم الإحالة إليه وكأن الأنا لا تعكس نفسها إلا في مرآة الآخر ولا تعي ذاتها بذاتها إلا من خلال الآخر، فتتخذ منه نموذجاً ومعياراً لتقييم الذات وفهمها كالتطهراوي الذي أسقط التراث القديم واختار الثقافة الغربية كأساس نظري لفهم الشخصية العربية الإسلامية. (حنفي، 1991، صفحة 45) يوجه حسن حنفي انتقاداً للمثل

هذه الدراسات التي تحيل إلى التاريخ الغربي وللثقافة الغربية كإطار مرجعي أثناء دراستهم للشخصية العربية والمصير العربي كأساس نظري للتحليل، فالأنا بموضع نفسه بهذه الطريقة كمستهلك وناقل في مقابل الآخر المنتج والمبدع .

ويرى "حسن حنفي" أن أسباب تغريب الوعي العربي ولجوئه إلى النقل من الغرب هو اصطدامه بكم هائل من المعلومات التي يتوجب عليه معرفتها من الآخر، مما يستدعي ضرورة استيعابه والإحالة إليه، وإذا ما أحاط بمعرفة الآخر فإن جانب النقل لديه يكون مثقلا للغاية فيعيش الباحث حالة اغتراب، فإذا ما حدث الإبداع فإنه يحال إلى الثقافة الغربية كأنها المصدر الأول للثقافة الإنسانية. وبالتالي لا يكون إبداعه إلا في إطار التبعية، فيصبح إبداعه جزءا من الإبداع الأوروبي ولكنه ينتمي إلى الأطراف التابعة والتي تتبع كلها من المركز، أما إذا توقف الإبداع فيرجع ذلك إلى عدم الاطلاع على الإبداعات الغربية، فالغرب أسبق في وضع المناهج العقلانية والتجريبية والتحليلية والبنوية والوصفية وهو النموذج لكل إبداع أيضا فإبداعات الأطراف تحال إلى المركز أما عن كيفية تكوين إبداعات الغرب و مصادرها، فلا شيء يذكر عنها غير الصمت. ( حنفي ، 1991 ، صفحة 48) ذلك أن الغرب هدفه تكريس التمرکز مقابل التبعية وتهميش الأنا واستبعادها عن كل إبداع لتمام الإحالة إليه باستمرار معتبرا نفسه مصدر الثقافة الإنسانية، فيجد الباحث أو المبدع نفسه مضطرا للوقوف عند الشواهد والنماذج الغربية.

كانت غاية "حسن حنفي" من إبداع الاستغراب إذن هي وقف النقل من الغرب بعدة النموذج لكل إنتاج ورد الحضارة الغربية إلى حجمها الطبيعي والقضاء على حضور وعي الآخر الثقافي والحضاري في الأنا بصفة تجعله تابعا مهما مشا وتجعل من الآخر الإطار المرجعي الوحيد لكل معرفة، يقول "حسن حنفي" يكفينا في جدل الأنا والآخر وتأسيس علم الاستغراب مقابل "التغريب" أي نقل الغرب؛ التخلّص من آثاره. يكفينا تحجيمه ورده داخل حدوده الطبيعية حتى يحدث التوازن في وعينا القومي بين حضارتنا وحضارات الغير في الغرب أولا، ثم في الشرق ثانيا. " ( حنفي ، 1991 ، صفحة 49) إن خلق التوازن للوعي وللذات في الحضارة العربية الإسلامية لا يكون بالتخلّص من عقدة النقص فقط ، وردّ الآخر إلى حجمه الطبيعي أو تصغيره بطريقة عكسية، أو وقف النقل من الغرب، والاكتفاء بما لدينا من تراث، وفي هذا السياق يرى "الجابري" أن "تراثنا قد يكفينا في الميدان الروحي الديني عقيدة وشريعة إذا نحن عرفنا كيف نمارس التجديد بالصورة التي تتناسب مع واقع عصرنا مع نوازله ومستجداته ومتطلبات الحياة فيه، وأما ماعدا هذا الميدان فتراثنا جزء من التاريخ جزء من تراث الإنسانية جمعاء، وإذا حصل أن تمكن قسم من الإنسانية من تجاوز التراث الإنساني العام فما على الباقي إلا أن ينهض ويسابق الخطى للحاق بالركب الرائد" ( الجابري، حنفي ، و آخرون، 1990 ، صفحة 121)

وبالتالي فليس من الضروري التخلّص من آثار الغرب دفعة واحدة، و لا ينبغي أن نبقي مكتوفي الأيدي حتى تزول المؤثرات، فذلك يلزمه تاريخ طويل لأنه مندرس في الوعي واللاوعي الجمعي، إذ إننا نمارس ثقافة الغرب بوعي ودون وعي منا من جيل إلى جيل، وليس من الضروري أيضا أن نضع نهاية الغرب شرطا لبدايتنا أو أفوله وتراجعها شرطا لتقدمنا. فالحضارة العربية الإسلامية حين كانت في أوج ازدهارها أثرت تأثيرا بالغا في أوروبا وهي تركزت تحت ظلام القرون الوسطى وبقي أثر الثقافة العربية الإسلامية جليا في أدبائها وعلمائها وفلاسفتها؛ " والمنصفون من الغربيين يعرفون ذلك، يقول غوستاف لوبون: "كان تأثير العرب في الغرب عظيما للغاية، فأوروبا مدينة للعرب بحضارتها، ونحن لا نستطيع أن ندرك تأثير العرب في الغرب إلا إذا تصورنا حالة أوروبا عندما أدخل العرب الحضارة إليها." ( أبو خليل

، 1995، صفحة 12) فقد كانت حضارة الإسلام إشعاعاً حضارياً منذ فتح الأندلس سنة 711م ومارست تأثيرها بثقافتها وعلومها وفتحتها على أوروبا الغارقة في ظلام الجهل واستعباد الكنيسة، لكن هذه الحضارة المتلاشبية سرعان ما بعثت من رمادها في عصر النهضة مستثمرة كل ما لديها من إرث إغريقي وروماني وعربي إسلامي، فاستثمر الغرب جزءاً من وعينا في تطوير وعيه واستطاع تغيير الكفة لصالحه. ولأجل ذلك على الاستغراب أيضاً أن يستثمر وعيه بالآخر لإعادة خلق التوازن للذات في علاقتها به. كما أن خلق هذا التوازن يكون من خلال الوعي بقيمة الذات والانطلاق من مراكز القوة في تاريخ الحضارة العربية الإسلامية والحضارات الشرقية، تماماً كوعيتها بمحطات القوة في تاريخ الحضارة الغربية لمواجهةها فعلياً لا نظرياً.

#### رابعا - الرد بالاستغراب على المركزية الأوروبية:

نتج عن المركزية الأوروبية تقسيم التاريخ إلى حقب زمنية (العصور القديمة "اليونان والرومان" والعصور الوسطى "المسيحي واليهودي والإسلامي" والعصور الحديثة) ويهدف هذا التقسيم إلى الاعتراف بتاريخ واحد هو تاريخ الحضارة الأوروبية. وينتج عن ذلك بالضرورة إلحاق الحضارات كلها بالتاريخ الأوروبي، وبالتالي يضع التاريخ العام للحضارات البشرية، وهذا ما قام به الوعي الأوروبي في العصر الحديث لأنه هو من قام بالتدوين. فضلاً عن إنكار دور الحضارات القديمة كالصين والهند وفارس ومصر القديمة، كما تم زحزحة الوعي التاريخي الإسلامي نتيجة تداخل التاريخين الأوروبي والإسلامي، فالحضارة الإسلامية لا تبدأ من العصور الوسطى كما جاء في التقسيم الأوروبي وإنما تمتد عبر خمسة عشر قرناً من الزمان. وتم إثر ذلك التداخل الأوروبي في وعينا الحالي - حسب رأي حسن حنفي - (حنفي، 1991، صفحة 42) فحضور الوعي التاريخي الأوروبي في وعينا الحاضر جعلنا نمتد تاريخياً في زمن ليس بزمناً، - حسب حنفي - ولأن الحضارات لا تصمد إلا بتاريخها الماضي والحاضر، فإن غاية المركزية الأوروبية هي طمس تاريخ الحضارات الشرقية للقضاء على أصولها وجذورها الضاربة في عمق التاريخ البشري.

لذلك فدور علم الاستغراب - انطلاقاً من الأهداف التي حددها حسن حنفي - هو إنهاء أسطورة الغرب كونه موضع نفسه مركز الإنسانية وتاريخها وثقافتها وعلومها وفلسفتها، فوظيفة الاستغراب هي القضاء على خطابات التمرکز التي تهدف إلى الهيمنة واستبعاد الأنا من التاريخ الحضاري الإنساني لذلك يرى "أن مهمة مفكرينا وباحثينا هي إعادة صياغة فلسفات التاريخ الأوروبي في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر خاصة، والتي صاغت التاريخ كله بحيث يصب في النهاية في الحضارة الغربية ووضع الحضارة الغربية في مكانها الطبيعي كمرحلة من مراحل تطور الإنسانية التي تكون مرحلة واحدة (...). ولكن مازال وعينا بالتاريخ غائباً بل إننا لم نثبت بعد أسباب الغياب ولم نعرف بعد مقومات الحضور." (حنفي، 1991، صفحة 43) إن هذه الرؤية التي طرحها "حسن حنفي" ليست دعوة للاجتهاد فحسب بقدر ماهي إشكالية؛ لأننا نتعامل مع فلسفات التاريخ الأوروبي كمسلّمات يقينية علينا الإيمان بها وتبنيها في وعينا وفكرنا وعلمنا، لذلك فالأولى بالباحثين في علم الاستغراب إعادة صياغة تلك الفلسفات من خلال إعادة النظر في القوانين التي تحكم في تطور التاريخ في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر باعتبار هذه المرحلة بؤرة التمرکز والتحول في مسار الوعي الأوروبي، وتقديم قراءات في الأسس النظرية للممارسات والتغيرات الاجتماعية والحضارية التي حدثت في الحضارة الغربية.

يؤكد "حسن حنفي" أن الهدف الأساسي لعلم الاستغراب هو القضاء على المركزية الأوروبية، ورد ثقافة الغرب التي انتشرت خارج حدودها أثناء المد الاستعماري، وبالتالي القضاء على أسطورة الثقافة العالمية والحضارة المتعالية وهي الحضارة التي على الشعوب غير الأوروبية تبني ثقافتها حتى تتمكن من مرحلة التقليد إلى مرحلة الحدائة ثقافة وفنا وعلما وأسلوب حياة؛ ذلك أن الغرب في وعينا هو النمط الأوحد لكل تقدم حضاري وهذا يلغي خصوصيات الشعوب الأخرى غير الأوروبية ويستبعدا عن الإبداع، " فالتراث الغربي وكما هو معروف عادة ليس تراثا إنسانيا عاما يحتوي على نموذج التجربة البشرية، وليس فقط وريث خرائطها الطويلة، تراكمت فيه المعارف انتقلا من الشرق إلى الغرب؛ بل هو فكر بيئي نشأ في ظروف معينة. " ( حنفي ، 1991، صفحة 37) لذلك كان الهدف الأساسي للاستغراب هو فك عقدة النقص لدى الأنا والقضاء على مركب العظمة عند الآخر لإعادة التوازن للثقافة الإنسانية .

ويرى حسن حنفي أن المثاقفة أو التفاعل الثقافي ما هو إلا حيلة من حيل الدول لأوروبية لتجسيد التبعية، فقد انفتحت على الثقافات المحلية واكتشفت مكانها ثم زرعت الثقافة الأوروبية محلها كثقافة بديلة ممثلة الثقافة العالمية وتوجهت إلى إنكار التاريخ الحضاري للشعوب اللأوروبية في إفريقيا وآسيا وأمريكا، وكأن تاريخها يبدأ فقط من حضور المستعمر، وكأن وجود العالم اللأوروبي مرتبط بالوعي الأوروبي له، وبالتالي تم تشويه ثقافات الشعوب الأخرى المستكشفة حديثا وتصنيفها ضمن تقسيمات تنم عن التمييز والعنصرية. لذلك يهدف علم الاستغراب في ظل هذا التعقيم المتعمد للوجود اللأوروبي إلى تصحيح المفاهيم وإعادة كتابة تاريخ العالم من منظور أكثر موضوعية وحيادا وعدلا بالنسبة لمدى مساهمة الحضارات البشرية في تاريخ العالم. ( حنفي ، 1991، صفحة 40) ينبغي الإشارة إلى أن حاجة الأنا إلى الآخر كحاجتها لذاتها وبالتالي فالذات هي التي ترسم حدود المثاقفة ونوعها، فالمثاقفة ينبغي أن تكون قائمة على الأخذ والعطاء لا على الهيمنة. أما فيما يخص الموضوعية فلا يستطيع الباحث في علم الاستغراب لاسيما إن كان ينتمي إلى الأنا اللأوروبي أن يحقق ذلك بموضوعية دون الوقوع في الذاتية وربما التعصب أيضا بذريعة الدفاع عن ثقافته وحضارته، ولعل ذلك هو الإشكالية الأساسية التي تواجه كل مستغرب هو مدى التزامه بالموضوعية في طرحه .

#### خامسا - الاستغراب وتمثل الوعي التاريخي:

يرى "حسن حنفي" أن علم الاستغراب في حالة اعتماده من طرف الباحثين مستقبلا وتحويله إلى تيار عام سيحرز نتائج عديدة حيث تتم السيطرة على الوعي الأوروبي واحتوائه، وقد يسهم ذلك في تغيير مواقع الريادة، والنظر إلى التاريخ الأوروبي كتجربة بشرية ومسار حضاري كغيره من المسارات " فالشعوب التاريخية، شعوب الشرق قد تكون أكثر قدرة على تمثيل الوعي التاريخي، نظرا لعمقها في التاريخ من الشعوب الحديثة، شعوب الغرب، نظرا لحدائتها في التاريخ، فمماذا تستطيع خمسة قرون وهو عمر الوعي الأوروبي في العصور الحديثة منذ الإصلاح الديني وعصر النهضة حتى الآن أمام ثلاثة آلاف سنة أو يزيد عمر الوعي الشرقي في مصر والصين. " ( حنفي ، 1991، صفحة 51) يصير "حسن حنفي" من خلال قوله هذا على الاستشراق المعكوس أو المضاد، فالهدف نفسه الذي حققه الاستشراق هو ما يسعى إليه استغراب "حسن حنفي"، ذلك أن أهم نتائج الاستشراق هو توجيه مركز البداية إلى الغرب منه تبدأ الحضارة والتاريخ الإنساني، وما دون ذلك لا حضاري ولا تاريخي ولا ثقافي، فقد عمل الاستشراق على تغييب الوعي التاريخي من خلال الجهود العلمية الجبارة لدراسة تراثنا الإسلامي واستيعاب عقلنا التاريخي بشئى جوانبه، ومن ثم محاولة تغييبه واستلابه من خلال رؤيته الاستشراقية، حيث

"كأن هذا الفهم للتاريخ مرجعية لثقافتنا الوطنية عقب الاستقلال بفعل نخبٍ احتكَّتْ بالغرب وتعلّمت علومه وظنّت أن طريق النهضة هو التقليد واحتذاء المسلك الأوربي بمخاديفه.." (الطيب، 2021) لذلك علينا أن نتساءل هل وصلنا إلى مرحلة التمثيل الحقيقي لتاريخنا بعد أن غيبناه، وهل يستطيع الاستغراب استعادة الوعي التاريخي من خلال احتواء الوعي التاريخي الأوربي؟ الحقيقة أن مهمة الأنا هي استردادها للوعي التاريخي المغيّب أكثر من تفكيرها في السيطرة على الوعي التاريخي الأوربي، بل علينا التفكير بوعينا التاريخي أثناء مناقشة قضايانا لا بوعي الآخر. لأن الإشكالية تكمن في أننا لم نع تاريخنا بعد ونعاني إجحافا في التعامل مع التاريخ، فبينما نكتفي بالسر السطحي للأحداث التاريخية نرى الغرب حريصا على تمثيل التاريخ وتوظيفه لخدمة إيديولوجياته.

وإذا كان الاستغراب ردة فعل مضادة على الاستشراق، عليه أن يسعى إلى تمثّل موضوعي يضع التاريخ الأوربي واللاأوربي في كفة واحدة كونه تاريخا إنسانيا بغض النظر إن كان يخص الحضارة الغربية أو الحضارة الشرقية، فلا يمكن تجاوز أي مرحلة من مراحل التاريخ الأوربي وإن كان تاريخا حديثا، كما لا يمكن إلغاء التاريخ العريق للحضارات الشرقية، وقبل ذلك العمل على بعث الوعي التاريخي من جديد بإعادة كتابة وقراءة تاريخنا بجوانبه الثقافية والسياسية والدينية في ضوء العقل العلمي النقدي لتجاوز الانتكاسات التي مر بها العقل العربي أثناء تغيّبه للوعي التاريخي وخضوعه للتبعية والتغريب. وإلا سنكرس علم الاستغراب لتأسيس صراع آخر يسعى إلى تمركز الثقافة الشرقية مقابل التبعية، بدلا من التأسيس لثقافة إنسانية يغيب فيها الإقصاء والاستبعاد والاختزال.

#### سادسا - الاستغراب وأسطورة الثقافة العالمية:

يسعى الاستغراب إلى القضاء على أسطورة الثقافة العالمية ذلك أن " لكل شعب نمطه الحضاري الخاص ووعيه المستمر وعلومه وتقنيته الخاصة كما هو في الهند والصين وإفريقيا و أمريكا اللاتينية (...) وبالتالي تنتهي علاقة المركز بالأطراف (...) وتعدد الحضارات المركزية وتباين المراكز وتصبح الحضارات كلها في مستوى واحد، فيقع التبادل والتفاعل الحضاري دون أن تقضي الحضارة الكبيرة على الحضارات الصغيرة باسم التثاقف أو التحاضر. " (حنفي، 1991، صفحة 51) يدعو "حسن حنفي" في أكثر من مقام إلى استشراق مضاد انطلاقا من الأهداف التي سطرها للاستغراب وتدور في مجملها في القضاء على مركزية الحضارة الغربية طامحا إلى قيادة الحضارة العربية الإسلامية وحضارات الشرق، ولكنه يدعو إلى التفاعل الحضاري وينتقد في مقام سابق التثاقف والمثاقفة بعدّها حيلة من حيل المراكز لفرض هيمنتها على الأطراف. لكن التفاعل الحضاري لا يحدث دون مثاقفة، ولا ينبغي أيضا أن تشكل الثقافة العربية قطيعة مع ثقافات الشعوب الأخرى ذلك أن القطيعة لن تحقق إلا العزلة والانغلاق "إن الأمر يوجب تنمية عوامل اختلاف جوهريّة واعية وجديدة تعمل على تغذية الذات الثقافية بطابعها المنشغل بوقائعه وموضوعاته المتصلة بالبعد التاريخي لتلك الذات (...) نقصد بذلك الاختلاف الذي يبحث بنفسه عن الحلول الممكنة للصعاب التي تواجه أسئلته الخاصة ولكن في الوقت نفسه الدخول في حوار متكافئ مع الآخر ومساءلته معرفيا ومنهجيا بغرض الإفادة منه وليس الامتثال له، بما يحول ثقافة الآخر إلى مكون فاعل وليس مكون مهيمن. " (إبراهيم، 1997، صفحة 05) فإشكالية المثاقفة ليست نابعة من إيديولوجيا الهيمنة الغربية - كما يتصور حسن حنفي - بقدر ما هي إشكالية الثقافة العربية ذاتها العاجزة عن التفاعل الثقافي الإيجابي؛ لما لديها من قابلية على الولاء والامتثال النابع من تبخيس الذات، فيتم بذلك استبعاد

واقعهما التاريخي والاجتماعي وإقصاؤه من طرف الآخر . فالاستعداد الذاتي لتقليد الآخر ومطابقته هو ما يكسّر اختزال ثقافته. فالوضع يشير إلى إشكالية خطيرة تنبع من مكونات الثقافة العربية ذاتها.

كما أن القضاء على أسطورة الثقافة العالمية يرتبط بمفهوم العالمية ذاتها في العصر الراهن فالثقافة العالمية ثقافة مركزية تخص الدول الأوروبية أما الدول غير الأوروبية فتثقافتها دنيا ومهمشة مقابل الثقافة المتعالية والرفيعة والتي يمثلها المركز الأوروبي، ولعل "حسن حنفي" يطمح إلى ثقافة كونية ترتقي فيها الحضارات دون صراع أو كراهية، لكن ذلك يبدو صعبا، فمنذ أن بشر "غوته Johann Wolfgang von Goethe) بالعالمية - في العقود الأخيرة من القرن التاسع عشر - وبالطموح ذاته سرعان ما أخذ المفهوم اتجاهها مغايرا - حتى في الفن والأدب - مواكبا ثقافة التوسع الإمبريالي، لذلك يفترض على الباحثين في علم الاستغراب إعادة صياغة مفهوم العالمية بحيث تنتصر لمعايير إنسانية تخلق التنافس والتطور والتفاعل، بعيدا عن تكريس أية مركزية لا للشرق ولا للغرب، دون إلغاء الخصوصية الثقافية للشعوب. وهكذا يبدو تحقيق النتيجة التي يصبو إليها "استغراب حسن حنفي بحيث" يتم إفساح المجال للإبداع الذاتي للشعوب غير الأوروبية وتحريرها من هذا الغطاء الذهني وهذه البنية العقلية، حتى تفكر الشعوب بعقليتها وأطرها المحلية فتتعدد الأنماط وتتوحد النماذج فليس هناك نموذج واحد لكل الشعوب." (حنفي، 1991، صفحة 52) فلا ينبغي أن يقتصر مفهوم الثقافة العالمية على ثقافة الآخر فقط، لأن الخصوصية الثقافية للمجتمعات البشرية عبر التاريخ سواء كانت شرقية أم غربية هي التي تصنع وجودها، ومن شأنها أن ترقى بها إلى العالمية شرط أن لا يبقى هذا المفهوم حكرًا على النموذج الغربي. وبالتالي إعادة صياغة المفهوم وفقا لخصوصية الثقافة الإنسانية المشتركة وإن اختلفت خصوصياتها القومية وهويتها الثقافية، فيرتقي الإبداع الشرقي والغربي معا إلى عالمية كونية تقصى فيها آليات الاستبعاد والإقصاء.

فإذا كانت الأنا تؤمن في قرارة ذاتها بخطابات التمرکز التي صاغت الحضارة الغربية فيجب على الحضارة العربية الإسلامية هدم الجدار العازل بينها وبين الحضارة الأوروبية سعيا إلى الارتقاء بجميع المجالات، لذلك فالاستغراب كعلم ينبغي أن لا يقتصر على الجانب الفكري والثقافي وفي جانبه النظري فحسب بل ينبغي أن يفعل على المستوى السياسي والاقتصادي والاجتماعي، وأن يمارس عمليا وعلميا على مستوى هذه المجالات لخلق وعي قادر على ملء الفجوة بين الحضارة الغربية والحضارة الشرقية، ويتم القضاء على عقدة النقص، لترتقي المجتمعات البشرية كلها وتتفاعل كمجتمع إنساني واحد. فإذا كانت المجتمعات الأوروبية تزداد تطورا بينما تسير المجتمعات غير الأوروبية ببطء في تطورها الفكري والثقافي والعلمي فإن الفجوة حتما ستظل قائمة.

وإذا كان استغراب "حسن حنفي" يرتبط بمعرفة تاريخ الوعي الأوروبي وبنية تكوينه وسبل ارتقائه، فلا يمكن أن يكون ذلك من أجل صناعة صراع مضاد، بل الأولى بالاستغراب أن يستثمر تلك المعرفة في إنشاء سلطة تكافئ سلطة الغرب، وقد يكفي ذلك لاعتزاز الحضارة الأوروبية بمكانتها وأنها ليست النموذج الوحيد، بل هناك نماذج قد تفوق تطورها الحديث، وأن تقدم المجتمع الإنساني لا يكون بصناعة الكراهية والصراع. لذلك على الشعوب غير الأوروبية القضاء على تغريب الذات لذاتها ثم مواجهتها تغريب الآخر الحاضر في وعيها، وهذا يرتبط بعقدة النقص والعظمة التي أشار إليها "حسن حنفي" كنتيجة من نتائج علم الاستغراب الذي يهدف إلى القضاء على عقدة النقص لدى الشعوب غير الأوروبية وإعادة الاعتبار لإبداعها بدلا من أن تكون مستهلكة لثقافة الغرب وعلومهم، وقد يتحول مركب النقص - حسب رؤية حسن حنفي - إلى مركب العظمة فيساعد على الخلق والإبداع. يقول حسن حنفي " فالعلمانية تشعر بمذا

المركب للنقص أمام الغرب، وكأن الإنسان لا يستطيع أن يكون عالماً أو مفكراً أو فناً أو حتى إنساناً إلا إذا كان غربياً، والحركة السلفية تشعر بدورها بهذا المركب للعظمة كرد فعل على الأول بالنسبة للغرب شباباً وشيوخاً أيضاً وكأن الإنسان لا يستطيع أن يكون إسلامياً إلا إذا نهل من القدماء وتمسك بكل معطيات التراث دون نقد أو تمحيص أو إعادة اختيار البدائل وكأن الإنسان في الحالتين لا يستطيع أن يكون إلا تابعاً مرة للمحدثين ومرة للقدماء." (حنفي، 1991، صفحة 52) وهذا ما نقصد به تغريب الأنا لذاتها من الداخل بحيث لا تسمح لنفسها بالخلق إلا من خلال اتباع الأسلاف والموروث دون إعادة قراءته والتمعن في مسلماته وإعادة تقديمه وفق ما يتماهي ومتطلبات العصر.

لا يؤدي الاستغراب دوره في القضاء على عقدة النقص إلا إذا تجاوزنا تغريب الذات لذاتها لخلق التوازن الداخلي للذات في علاقتها بموروثها أولاً وبموروث الآخر ثانياً. وهذا لا يتحقق كما دعا "حسن حنفي" بخلق مركب العظمة الوهمي بل من التخلص من العقدين معا وإلا تطابق علم الاستغراب مع الاستشراق في صناعة خطاب الكراهية مجدداً وتكريس العداة والتمركز ولن تكون نتائجه موضوعية أو حتى تقترب من ذلك، لأن الباحث في الاستغراب سيتعصب للأنا ليسبح في حلقة مفرغة بدلا من أن يكون هدفه تجسيد ثقافة السلام والتعايش الحضاري.

وقد أعلن "حسن حنفي" عن انتهاء الاستشراق أثناء عرضه لنتائج علم الاستغراب إلا أن هذه النهاية لم تبدأ بعد، فالاستشراق لم يزل يعمل.. على الرغم من أن (جاك بيرك) قد أدلى بتصريحات عام 1975 م، أعلن فيها عما سَمَّاه: انتهى زمن الاستشراق، وتقرر أن يطلق على أي مؤتمر للاستشراق: مؤتمر العلوم الإنسانية. (أبو خليل، 1995، صفحة 06) إن ما أعلن عنه "جاك بيرك" لا يعبر عن نهاية الاستشراق؛ وإنما الواضح من قوله هو نهاية مرحلة الاستشراق الكلاسيكي الذي حقق أهدافه الإيجابية والسلبية بالنسبة للتراث العربي الإسلامي، وقد انتهت هذه المرحلة ولم تعد تنسب دراسة الأوضاع العربية والإسلامية إلى النموذج الاستشراقي التقليدي إذ أصبحت تنتمي إلى مختلف العلوم الإنسانية.

وينبغي الإشارة إلى أن الاستشراق المعاصر كَيْفَ منهجه وطرائقه في معرفة الشرق حسب ما وصلت إليه التطورات العلمية والتكنولوجية في عصرنا الحالي. وتجاوز الغرب الاستشراق في سياق ما بعد الحداثة وما بعد الاستعمار "و لا يتوقع أن ينتهي الاستشراق قريبا كما يظن البعض، بل إن مهمته مازالت مستمرة، طالما كان ثمة صراع في بلادنا، وإنما الذي قد يجوز أن يكون انتهى هو تصدر الاستشراق لرسم صورة شائهة مزيفة تخاطب عموم الجماهير، ذلك أن الاستشراق وقد التزم -وإن بلسانه- بالتقاليد العلمية لا يستطيع أن يردد خرافات الماضي في ظل الثورة الإعلامية وثورة الاتصالات العصر." (الهامي، 2015، صفحة 192) فالإعلام المعاصر هو الذي يعيد حالياً إنتاج الاستشراق في صورته المغايرة، ولا أحد ينكر ما للإعلام من وسائل وأساليب مستحدثة قادرة على توسيع أهداف الاستشراق في العصر الراهن.

وما يمكن أن نخلص إليه أن استغراب "حسن حنفي" لا يختلف عن الاستشراق بدءاً من اشتقاق المصطلح من "الغرب" كما اشتق الاستشراق من "الشرق" إلى تبني منهجه في الدراسة وصولاً إلى الأهداف المعكوسة والتي تسعى إلى القضاء على المركزية الغربية. كما كانت آراء "حسن حنفي" في مواضع كثيرة متناقضة وغلبت عليه الذاتية في تحديد أهداف مشروعه وعرضه لتاريخ الوعي الأوروبي

ومصادره دون نقد، وبذلك لا يبدو الاستغراب سعياً لإنسانية شاملة أو مجرد تحرر من التبعية على هذا النحو من الطرح المتضارب بقدر ما يبدو حقاً استشرافاً معكوساً يصنع ما صنع الاستعمار، ويعيد كتابة التاريخ بطريقة تكسّر الصراع بين المراكز والأطراف من أجل تبادل الأدوار.

فقد مضى على صدور مشروع حنفي "علم الاستغراب" قرابة ربع قرن ولم يتغير شيئاً مزال الشرق شرقاً والغرب غرباً، ولم يحدث أيّ إضافة غير الانفتاح على فلسفة الغرب التي يمكن الرجوع إلى مصادرها الكثيرة، ولم يطرأ أيّ تحديد على مفهوم الاستغراب المضاد للاستشراق أو تم نقله من مجاله النظري إلى التطبيقي. لذلك كان من الضروري أن لا يكون مشروع "حسن حنفي" حول الاستغراب مجرد عرض تاريخي للوعي الأوروبي ومصادره، وإنما كان الأولي به أن يرسم له برنامجاً أو استراتيجيات تخرجه من مجال الوصف إلى مجال الفعل والممارسة، وتفتح المجال ميدانياً أمام المستغربين للرد على المركزية الأوروبية في جميع المجالات وبالطرق التي تجعل الحضارة العربية الإسلامية ترتقي إلى مصافها لخلق حضارة توازي الحضارة الغربية دون صراع أو عداوة، لاسيما وأن الغرب لم يتحرر بعد من مركب العظمة والتفوق، والشرق لم يتحرر أيضاً من عقدة النقص، ومازال غارقاً في أزيماته وانتكاساته. غير أن هذا المشروع اجتهاد معرفي لبناء وعي جديد وإعادة النظر في تاريخنا وتراثنا وعلاقتنا بذاتنا وبالأخر. لذلك فالمهمة المتبقية تقع على عاتق المهتمين بمجال الاستغراب.

## قائمة المصادر والمراجع

- أحمد الشيخ . (2000). من نقد الاستشراق إلى نقد الاستغراب (المجلد 01). القاهرة: المركز العربي للدراسات الغربية.
- أحمد عبد الحليم عطية . (1997). جدل الأنا والآخر، قراءات في فكر حسن حنفي في عيد ميلاده الستين (المجلد 01). القاهرة: دار عبد ربه للطباعة.
- توفيق الطيب. (29 12, 2021). الوعي التاريخي وقضاياها: كيف دخلنا التاريخ وكيف خرجنا منه وكيف نعود إليه. تاريخ الاسترداد 02 04, 2022، من الرشد: <https://alrashad.org>
- حسن حنفي . (1991). التراث والتجديد، موقفنا من التراث الغربي. مقدمة في علم الاستغراب. القاهرة: الدار الفنية للنشر والتوزيع.
- شوقي أبو خليل . (1995). الإسقاط في مناهج المستشرقين والمبشرين (المجلد 01). بيروت: دار الفكر المعاصر.
- عبد الله إبراهيم . (1997). المركزية الغربية. إشكالية التكون والتمركز حول الذات (المجلد 01). الدار البيضاء، المغرب: المركز الثقافي العربي.
- فاروق عمر فوزي . (1998). الاستشراق والتاريخ الإسلامي. القرون الإسلامية الأولى، دراسة مقارنة بين وجهة النظر الإسلامية ووجهة النظر الأوروبية (المجلد 01). عمان: الأهلية للنشر والتوزيع.
- محمد الهامي . (2015). نحو تأصيل إسلامي لعلم الاستغراب. القاهرة: دار التقوى.
- محمد عابد الجابري، حسن حنفي، و آخرون. (1990). حوار المشرق؛ نصوص (المجلد 01). الجزائر: منشورات الاختلاف.
- نايف بن نهار . (2017). نحو منهجية مقترحة لتأسيس علم الاستغراب. مجلة علم الاستغراب، 01 (ع 01)، صفحة 26.